**اللغة والواقع فى الفيزياء الحديثة: (المقالة السابعة عشر)**

**أد/ناصر هاشم محمد أستاذ الفلسفة بآداب أسيوط**

وكان اينشتاين (1955) ينظر إلى اللغة باعتبارها الشكل الخارجي للحقيقة وأنها محاولة الوصول إلى الأشياء الموجودة بشكل حقيقي فى العالم الخارجي أنها تحاول التعبير عن الواقع الذي يختبره الإنسان، فلا وجود لرابط علمي بين الدال والمدلول أي بين الشيء والكلمة أو بين الحقيقة واللغة، أى أنه ليست كلمة "إنسان" تعبر عن خواص الإنسان الطبيعية، إن العلاقة هى فقط محاولة للوصول إلى أشياء موجودة فى الواقع للتعامل معها فقط للسيطرة عليها ووضع قوانين ونظريات ..إلخ،

ويري اينشتاين إن الفيزياء هى محاولة للسيطرة مفاهيمنا على الواقع كما هو وبشكل مستقل عن كونه مراقباً ، إذا كانت الأفكار مستقلة عن المادة لكنها فى نفس الوقت مستوحاة منها إذا الأفكار الذات الفاعلة للحقائق الموجودة بالواقع المادي وافتراض فكرة خارج الإطار المادي مستحيل لأنها لا تكون مستوحاة من الواقع الحقيقي بل مستوحاة من واقع آخر ، غيبي مثلاً وهذا لا دليل عليه.

وكان أصحاب نظرية الكم يذهبون إلى أنه لا يبدو شيء ما واقعياً فى مجال فيزياء الجسيميات الأولية ، فهل يمكن بعد ذلك أن نتحدث عن إمكانية صنع لغة محايدة قادرة على وصف الواقع وتكون فى نفس الوقت متطابقة معه على نحو تام بحيث تتطابق عبارات هذه اللغة مع عناصر الوقائع التى تعبر عنها هذه اللغة ، فما بالنا إذا كان الواقع ذاته مبهماً ، فما بالنا إذا كنا نتحدث عن أمور افتراضية.

إننا لا نجد سبيلاً للشك فى القول بأن المشروع اللغوي الذى سعي فنجنشيتن إلى بنائه إنما ينهار فى ضوء الفيزياء الذرية ونتائج أبحاثها، ذلك لأننا لا يمكننا تأسيس لغة معطيات حسية ثابتة ولأن إحساساتنا البصرية إنما تشكل فى ضوء مفاهيمنا اللغوية

لقد أنكر هانسون القول بواقعية وموضوعية الوقائع إذ يلعب التعبير اللغوي عن الواقعة دوراً هاماً فى تشكيلها ، وذلك فإنها لا تتصف بالثبات على الإطلاق ، فما دامت الوقائع يعبر عنها لغوياً لكي يتم استيعاب "واقعيتها" و "موضوعيتها" وما دامت هذه التعبيرات متوقفة على الأطر المرجعية ، فإن الوقائع ذاتها محملة بالنظرية

وربط الفلاسفة الوضعيون بين وحدة العلم والفيزياء فعندهم لغة الفيزياء هى اللغة الوحيدة التى تستطيع التعبير عن سائر قضايا العلم المختلفة كعلوم النفس والحياة والعلوم الاجتماعية ، كل هذه العلوم يمكن التعبير عنها بلغة الفيزياء، أى التعبير عن مفاهيم هذه العلوم بمفاهيم علم الفيزياء وعندئذ يصبح علم الفيزياء هو الأساس الذي إليه ترد هذه العلوم الأخرى.

وأشار كارتاب (1970) إلى ما أسماه " لغة الشيء" أى القدر من اللغة المشترك بين لغة الحياة اليومية واللغة الفيزيائية التى تشمل الحدود التى تصف بها المحمولات القابلة للملاحظات مثل "حار" "بارد" تمثل الأساس الكافي الذي يمكن إليه رد لغة العلم فى كليتها " لغة علم الفيزياء" والأحياء وعلم النفس، هذه الحدود التى تصف بها المحمولات القابلة للملاحظة يسميها كارناب" محمولات الشيء القابلة لملاحظة"

إن كل حد من حدود اللغة الفيزيائية قابل لرد إلى لغة الشيء ومن ثم إلى محمولات الشيء القابلة للملاحظة، وذلك أن عالم الفيزياء لن يقبل فى لغته أى حد لا وجود لطريقة تحديده ، وطريقة تحديده هى الملاحظة والتجربة التى تبنيها قضية الرد وذلك بوصف التجربة التى يمكن تنفيذها ونتائجها المكلمة، على هذا النحو ترد قضية الرد إلى الحد إلى محمولات الشيء.

العلاقة بين مفهوم الواقع ومفهوم الحقيقة:

إذا كان مفهوم الحقيقة يتضمن ما هو معطي ثابت قار ويقيني كما ذكرنا آنفا فهل الواقع تنطبق عليه هذه الخصائص، إن التجربة تبين أن الواقع متغير ومتحول ، إن لم يكن بصورة مطلقة، فعلى الأقل بشكل نسبي، إن هذا هو الأساس الذى تقوم عليه إشكالية العلاقة بين الحقيقة والواقع فى شقيها، أي الحقيقة كمرادف للواقع، والحقيقة كمطابقة الفكر بالواقع.

أولا: الحقيقة بما هى واقع:

فإذا كان ما يجمع بين الحقيقة والواقع هو الثبات والهوية بما كان الواقع يظهر فى التجربة الحسية متغيراً ، فما هى مختلف الأطروحات التى حاولت حل هذه الإشكالية.

من القائلين باتصال الحقيقة بالواقع الفيلسوف ميشيل بولاني (1891–1976) الذى كان يري أنه لابد من الاعتقاد فى واقعية الحقيقة، فالحقيقة توجد بشكل مستقل عن معرفتنا لها.

أى أن الحقيقة عنده توجد خارجة ومستقلة عن الشخص العارف ، وفى مواضع عديدة يخبرنا بولاني بأن الحقيقة متخفية علينا، ومن وجهة النظر التقليدية لدينا ثلاثة عوامل أساسية تشير إلى هذا التقييم.

(أ) الذات أو الشخص العارف.

(ب) الحقيقة الخارجية والمستقلة عنا.

(ج) عملية المعرفة والإدراك.

ويرى موسجريف أن بولاني بذلك يوظف الفرضية التى تقدم الفكرة الموضوعية للصدق، وربما تبقي هذه الفرضية بولاني فى إطار الواقعية فالصدق يمكن فى تحقيق الاتصال بالواقع، والقضية يكون لها قيمة بالنسبة للعلم الطبيعي إذا كانت تتطابق مع الواقع.

والسؤال المفروض هنا هو إذا تطابقت الحقيقة مع الواقع أى إذا صارت الحقيقة عقلية خالصة فكيف يمكن ن تنشأ مطابقة تلك الحقيقة للواقع، وأي واقع تكون تلك الحقيقة مطابقة له، هل الواقع الحسي المشكوك فيه والذي لا يحمل حقيقته فى ذلك بل يستمدها من واقع آخر مفارق له.

إن إشكالية المطابقة تقتضي أن يكون الشيئان متماثلان ومن نفس النوع بحيث ينطبق أحدهما على الآخر، فى حين أن الأمر ليس كذلك فما يتعلق بكل من الحقيقة والواقع، ذلك أن الحقيقة ذات طابع فكري مجرد، أما الواقع فقد يكون مادياً أو لا مادياً، ومن هنا تطرح إشكالية المطابقة من جديد، كيف يمكن أن يكون ما هو لا مادي متطابقاً مع ما هو مادي، وكان كانط (1804) يقول بعكس هذا التصور فهو يري أن الحقيقة لاهي توجد فى الفكر ولاهي فى الواقع على نحو مسبق وجاهز ، بل يتم بناؤها من مادة وصورة ، بأن كل معارفنا تتبدئ بالحواس ، فالتجربة الحسية تزودنا ما يسميه كانط مادة المعرفة أى ما ستعلق بأشكال الأشياء وألوانها وأحجامها وتوالي الظواهر أو تأنيها أو تعاقبها، ولكن هذه المعطيات تبقى مفككة وغير

منظمة ولهذا لابد من تدخل العقل بما يتضمنه من مفاهيم حتى يعطي لتلك المدركات الحسية طابعاً منظماً من خلال استعمال مجموعة من المفاهيم مثل الوحدة والكثرة والعلاقات السببية.

وهناك إشكالية أخري يطرحها القول بالتطابق بين الحقيقة والواقع وبين الوقائع على الفيزياء وهى أنه غالباً ما توجد صياغات يقتضى الأخذ بإحداها إقصاء الأخرى وذات أوجه أو مظاهر مختلفة جداً، ومن أمثلة ذلك الصياغتان المختلفان للنظرية الكهروطيسية الكلاسيكية، إحداهما يستخدم لفظ الحقول الكهروطيسية التى تشغل المكان كله ، والأخرى لفظي الشحنات المحددة الموقع والتيارات المؤثرة عن بعد، مع التعبير عن الأفعال أو التأثيرات فى شكل طاقة كافية أو جهد ينتشر بسرعة الضوء.

إن هذا النوع من الصياغات المتكافئة تكون إذا ما وجدت مجردة لأتباع نظرية المطابقة، فهم يواجهون مثلاً بمسألة معرفة ما إذا كان العالم يحتوي فعلاً وواقعا حقولاً كهرطيسية أو طاقات كامنة (جهود كهربائية) تنتشر وليس لديهم أى وسيلة للإجابة على هذا السؤال.

وهناك صعوبة أو إشكالية أخري تواجه أصحاب القول بالمطابقة بين الحقيقة والواقع وهى كون نظرياتنا هى إبداعات بشرية خاضعة للنمو والتغيير بينما للعالم الذى يشكل موضوعات لهذه النظريات سلوك آخر مغاير، إن الأطروحة القائلة بأن هدف العلم هو الحقيقة تصطدم فى صيغتها القوية بهذه الملاحظة البسيطة.

وكان الفيلسوف البراجماني وليم جيمس (1910) قد شن هجوماً مباشراً ضد مفهوم الحقيقة والواقع وتطابقهما ، فعند جيمس إن الحقيقة نظم المبادئ مثل أى نظرية فيزيائية على سبيل المثال ، لا تكمن فى كونها تصويراً أميناً للواقع ، بل فى أنها تسمح لنا من خلال هذه المبادئ بتغير خبراتنا، بما يساير رغباتنا، إن وليم جيمس لا ينكر أن الواقع مستقل عما تقول أو نفكر فيه ولكن الحقيقة التى لا ترتبط سوى بما نصف به الواقع تبدو له وكأنها نابعة كما نبتكر الأدوات الميكانيكية كى نسخر قوى الطبيعة فى خدمتنا ، والفيزيائي فى نشاطه العلمي لم يستخدم أبداً مفهوماً آخر لحقيقة غير مفهوم البراجمانية.

وذهب الفيلسوف الألماني هربرت ماركيور (1979) إلى عكس نظرية التطابق فربط بين فكرة الواقع والتناقص والحقيقة فذهب إلى أن الواقع هو بناء متناقص أو كلية سالبة كل شئ فيها يصطدم بضده، وكل شئ فيها قابل للانهيار أو الصيرورة بفعل ما فيها من أضداد متقابلة ومتنافرة، وفى هذا البناء المتناقض

يكتسب الشيء هويته المؤقتة التى سرعان ما تتحول إلى ضدها بفعل غائبة باطنة فى الموضوع ذاته نحو تخطي ما يكونه فى اتجاه ما ليس هو الآن، أى فى اتجاه ماهيته،وحقيقة الماهية هى المفهوم والفكرة المطلقة التى يتحول فيها المنطق أو اللوغوس إلى طبيعة وروح بعد أن كان المنطق الموضوعي من قبل وهى نظرية الوجود والماهية. قد تحول إلى ذاتية أو منطق ذاتي يعلن أن حقيقة الذاتية هى حقيقة الموضوعية.

وشأن ذلك كله أن يجعل التصورات الأساسية داخل هذا البناء المتناقض للواقع تسم بدلالة مزدوجة، فهى لا تدل أبداً على مجرد تصورات، كما هى الحال فى المنطق الصوري، بل على صورة أو أحوال للوجود يفهمها الفكر والفكرة الصحيحة تمثل الواقع لأن هذا الأخير قد بلغ فى نموه المرحلة التى يوجد فيها متمشياً مع الحقيقة وهنا فإن شمول المنطق يقترب من نقيضه، فمن الممكن القول أنه يستمد صور الفكر ومبادئه من صور الواقع ومبادئه بحيث تكون القوانين المنطقية ترديداً للقوانين التى تتحكم فى حركة الواقع.

إن التوحيد بين العقل والواقع أو بين الذات والموضوع ليس فيه إلغاء لطرف وإثبات لطرف آخر، أى عندما تبتلع الذات الموضوع وتتصور على أنها كل شئ.

والخلاصة إن مفهوم الحقيقة فى دلالته الشائعة غالباً ما يسند على معيار أساسي هو معيار الواقعية، هكذا يكون الحقيقي هو الوجود القابل للإدراك الحس المباشر، أو القابل للتحقق الواقعي، إن هذا التمثل ليس كلياً خاطئاً، ولا يبتعد كثيراً عن بعض التمثلات الفلسفية ( المذهب التجريبي مثلاً) إلا أنه اصطلاح قاصر، فمن الملاحظات التى يمكن أن تسجل عليه، أن الحقيقة ليست دائماً واقعية أو مطابقة بشكل مباشر للواقع، فالحقيقة الرياضية مثلاً برهانية والإبداعات الفنية والأدبية الخيالية حقيقة، ليس لأنها مستمدة من الواقع ولكن لضرورتها الوجدانية.

وعندما تطرح العلاقة بين الوعي والوجود فلابد أن نفرق بين الواقع بمعناه الحقيقي والواقع بمعناه الافتراضي وكيف يتعامل الوعي معها، فهذه العلاقة هى علاقة جدلية وانعكاسية فالواقع الافتراضي هو واقع حقيقي بالأصل، ولكن بعد أن تم تجريده والتفاعل معه من قبل الإنسان، بمعني آخر الواقع الافتراضي هو مستوحي من الواقع الحقيقي.. لا وجود لواقع افتراضي من دون الواقع الحقيقي الذى تم معايشته واختباره ومعاناته من قبل الذات الإنسانية كذات فاعله تعمل على السيطرة على الواقع من خلال الوعي البشري الذى يعاين ذاته..

الوعي ينتج الأفكار المفاهيم النظريات المصطلحات هذه كلها هي وسيلة الوصول إلى الحقيقة الموضوعية الموجودة بالواقع.